الفصل الأول

الرواية والراوى

فى افتتاحية رواية «أولاد حارتنا».. ورد على لسان الكاتب ما يلى:

«هذه حكايات حارتنا، لم أشهد من واقعها إلا طوره الأخير الذى عاصرته، ولكنى سجلتها جميعا كما يرويها الرواة وما أكثرهم. جميع أبناء حارتنا يروون هذه الحكايات، يروونها كل كما يسمعها.. أو كما نقلت إليه خلال الأجيال..».

وإذن فمصدر القاص هو ما سمعه من روايات تتناقلها الأجيال، سجّلها كما سمعها، ثم قدّمها لنا فى الرواية التى تحمل هذا الاسم: «أولاد حارتنا».

فنحن إذن بإزاء «رواية» هى: أولاد حارتنا، وإزاء راو لها أوصلها إلينا هو «نجيب محفوظ». ومن هنا كان علينا أن نفتح حديثنا بكلمة عن الرواية، ثم بأخرى عن الراوى.

أولا: عن الرواية

١ - حديث «نجيب محفوظ» عن أولاد حارتنا:

تحدث «نجيب محفوظ» عنها فى حديثه مع «رجاء النقاش»: (نجيب - صفحات من مذكراته وأضواء جديدة على أدبه وحياته - «رجاء النقاش» - ١٩٩٨م - ص ١٤١ وما بعدها) فقال: «أولاد حارتنا» هى أول رواية أكتبها بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢م، وسبقتها خمس سنوات من الانقطاع التام عن الكتابة - وتحديدا بين عامى ١٩٥٢م، ١٩٥٧م - وهى من أشق الفترات التى عشتُها فى حياتى، وأصعبها على نفسى. والحقيقة أننى لم أعرف سببا واضحا لهذا الانقطاع. بعض الأصدقاء قالوا لى إنه نتيجة إجهاد حدث لى بعد كتابة «الثلاثية» والتى استغرقتُ فى كتابتها أربع سنوات متصلة ابتداء من عام ١٩٤٨م وحتى ١٩٥٢م. ولكن ربما كان السبب هو أن قيام ثورة يوليو ١٩٥٢م قتل الرغبة عندى فى الكتابة. فقد كنت أعتبر الهدف الرئيسى لكتاباتى هو نقد المجتمع المصرى ودفعه

للتغيير والتطور. وبعد قيام الثورة واتجاهها لتحقيق ما كنت أنادى به، كان السؤال الذى يلـح علـى: ما جدوى الكتابة حينئذ ؟! الطريف أنه كان فى مكتبى سـبعة مشـروعات لروايـات كنت أنوى كتابتها، منها روايـة اسمها «العتبة الخضراء»، وقد حكيت فكرتها «لعبد الرحمن الشرقاوى» فأعجبته جدا، وقال لى يومها أنه تمنى أن يكتب فى هذا الموضوع واستنكر عدم إكمال الرواية. ولما طالت فترة التوقف وأصبحتُ كالتائه، استقر فى وجدانى أننى انتهيت كروائى، وأنه لم يعد عندى جديد أقدمّه للناس. لدرجة أننى ذهبت إلى نقابة الممثلين وقيدت اسمى ككاتب محترف «للسـيناريو» وكنت قبل ذلك أعمل كهاو فى كتابة «السـيناريو» مع المخرج «صلاح أبو سيف» وتصورت أن كتابة «السيناريو» سوف تكون هى عملى الوحيد الذى يمثل لى العزاء، ويسدّ الفراغ الذى تركه الأدب فى حياتى. وكنت فى تلـك الأيـام مقبلا على الزواج، وتزوجت بالفعل فى عـام ١٩٥٤م، وكان لابد لى من عمل أحصل منه على دخل إضافى أواجه به مسئوليات الزواج والأسرة الجديدة. وفى أيام عملى كسينارست محترف زاد دخلى بشكل ملحوظ مقارنة بأيام عملى كروائى. والحقيقة أن فترة عملى فى كتابة «السيناريو» كانت من أحسن فترات حياتى من الناحية المادية.

فى عام ١٩٥٧م شـعرت بدبيب غريب يسرى فى أوصالى، ووجدت نفسى منجذبا مرة أخـرى نحو الأدب. وكانت فرحتى غامرة عندما أمسـكت بالقلـم مرة أخرى، ولم أصدق نفسى عندما جلست أمام الورق من جديد لأعاود الكتابة. وكانت كل الأفكار المسيطرة علىّ فى ذلك الوقت تميل ناحية الدين والتصوف والفلسفة، فجاءت فكرة رواية «أولاد حارتنا»، لتحيى فى داخلى الأديب الذى كنت ظننته قد مات. ولذلك لاحظ النقاد تغييرا فى أسلوبى واتجاهاتى الأدبية وهم يقارنون رواية «أولاد حارتنا» بما سبقها من أعمال، فهى لم تناقش مشـكلة اجتماعية واضحة كما اعتدت فى أعمـالى قبلها، بل هى أقرب إلى النظرة الكونية الإنسـانية العامة، ومع ذلك فرواية «أولاد حارتنـا» لاتخلو من خلفية اجتماعية واضحة، ولكن المشكلات التى صاحبتها، والتفسيرات التى أعطيت لها، جعلت كثيرين لايلتـفتون إلى هذه الخلفيات. وقد نشرت رواية «أولاد حارتنا» فى جريدة «الأهرام» كحلقات مسلسلة. ولهذا النشر قصة أخرى.

٢ - قصة نشر الرواية مسلسلة:

يواصل «نجيب محفوظ» حديثه فيروى قصة نشر الرواية فى الأهرام مسلسلة فيقول فى نفس المرجع (ص٤٢):

لأننى فى عام ١٩٥٧م حصلت على جائزة الدولة.. فأقام لى «إحسان عبد القدوس» حفل تكريم فى منزله.. ودعا إليه عددا كبيرا من الأدباء والصحفيين على رأسهم كامل الشناوى وفى حفل التكريم اقترب منىّ «على حمدى الجمال» مدير تحرير الأهرام وقال لى إنه يكلمنى باسم الأستاذ «محمد حسنين هيكل» رئيس التحرير، وأنه يريد منىّ رواية لتنشر فى الجريدة على حلقات مسلسلة. لم أكن قد بدأت فى كتابة رواية «أولاد حارتنا» – وبالتالى اعتذرت بأنه ليس لدىّ الآن رواية جاهزة للنشر، ووعدت «الجمال» بأن أول رواية أكتبها سأرسل بها إلى «الأهرام». وانتهيت من كتابة رواية «أولاد حارتنا» فى شهر أبريل ١٩٥٨م، حيث استغرقت كتابتها سنة «نجيبية» حيث تبدأ سنة الكتابة عندى فى شهر أكتوبر وتنتهى فى شهر أبريل، وتذكرت بعد أن انتهيت من الرواية الوعد الذى قطعته على نفسى، فاتصلت بالأستاذ «على حمدى الجمال»، واتفقنا على موعد، وذهبت إليه بأوراق الرواية التى قرأها، وأعجب بها وصرّح بنشرها دون أى ملاحظات. ويبدو أن الأستاذ «الجمال» قرأها على أنها رواية عادية عن حارة مصرية وقع بها صراع بين مجموعة من الفتوات.

هذا وقد أخذت «الأهرام تنشر» الرواية على حلقات، وغالبا ما كانت تنشر الحلقة فى صفحة(٨).. وكانت الحلقة ربما تضمنت فصلا، أو أكثر من فصل، وقد استغرق نشرها الفترة من ٢١ سبتمبر سنة ١٩٥٩م حتى ٢٥ ديسمبر ١٩٥٩م. وكانت تنشر يوميا، ومعها رسم تعبيرى مستوحى من شخصيات الرواية..

وانتظم النشر حتى الحلقة الأخيرة التى انطوت على الفصل رقم ١١٤، وبعدها كانت عبارة «انتهت القصة».

٣ - زوابع حول الرواية:

فى حديثه السابق ذكر «نجيب محفوظ» أن الأستاذ «على حمدى الجمال» هو الذى قرأ الرواية لدى تسليمها للأهرام، وهو الذى صرح بنشرها بدون إبداء أية ملاحظات ويعقب «نجيب محفوظ» على ذلك بقوله: «ويبدو أن الأستاذ «الجمال» قرأها على أنها رواية عادية

عــن حارة مصرية وقع بها صراع بــين مجموعة من الفتوات» ولعله كان يمكن أن يضيف: مثلما هو الشــأن فيما قدم «نجيب محفوظ» من قبل: فى زقاق المدق، وفى بعض صفحات الثلاثية، فقد كانت الحارة والحوارى هى عالم «نجيب محفوظ» المفضل، الذى لفت النظر إلى براعته فى تناول هذا العالم والغوص فى أعماقه.

وعلى ذلك فلم ينتبه الأستاذ «الجمال» إلى ما قامت عليه رواية «أولاد حارتنا» من رموز ومن إيحاءات، بما تســتتبعه من محاولة قارئها أن يحاول استكشــاف القصد من وراء تلك الرموز، والحقيقة التى تعنيها الرواية والمعانى التى تهدف إلى إبرازها..

وكان مــن الطبيعــى – لأن ذلك هو أول ما يرد على الخاطــر – أن الرواية إنما تروى قصة الخلق، وحكاية الكون، وتطوُّر البشرية.. ومن ثم فإن الخطوة التالية هى محاولة حلّ الرموز، وتسمية الشخصيات بأسمائها المعروفة.

ومتى جرى ذلك فإنه يستتبع إجراء مقارنة ما ورد فى الرواية وبين الحقائق التاريخية الثابتة والمعروفة بشأن الأنبياء والديانات والذات الإلهية..

ومن الطبيعى أن يجد القارئ اختلافات جوهرية فيما بين ما هو معلوم لديه يقينا، وبين ما يستشفه من قراءته للرواية ومتابعته لأحداثها.. فيندهش من الكاتب وكيف يجيز لنفسه أن يخالــف ماهــو ثابت، وأن يخرج على ماهو معلوم علما يقينيا.. ويزداد الأمر ســوءا إذا كانت تلك الاختلافات تمسُّ أمورا مقدسة، وتنال من شخصيات لها قداستها..!

وإذ آثار البعض هذه التفســيرات، فما لبثت أن انتشرت انتشارًا سريعًا، ممَّا أثار حول الروايــة زوبعة ضخمة، أدت إلى اتخاذ إجراءات حيالها لحجبها عن الجمهور، ولتحجيم مدى انتشارها بين القراء..

غــير أن الزوبعة ما لبثــت أن همدت، وبصفة خاصة بعد حجب نشــر الرواية فى الداخــل (فــى كتاب)، مما جعل الكتابة عنها أمرا عديم الجدوى، ولا يجد من يتابعه بالدراسة والتعليق.

ولكــن ذلك التوقــف كان لفترة.. إذ مــا أذيع نبأ فوز «نجيب محفــوظ» بجائزة نوبل حتــى صــارت أمور «نجيب محفــوظ» – كل أموره – موضع اهتمام، بمــا فى ذلك رواية «أولاد حارتنا» وذلك كله هو ما سوف نعرض له بالتفصيل فى فصول هذا المؤلف المتتالية..

وإن كان ذلك لا يمنعنا من ملاحظة أن كل ما قيل من تفســيرات للرموز ســار جميعه – أول الأمر – فى اتجاه واحد، هو التفسير الدينى دون سواه من التفسيرات الأخرى التى

يحتملهـا النص، ومـن ثم رتبوا ما رتبوا من نتائج أصبـح تداولها يجرى على أنه الحقيقة الموضوعيـة الوحيدة التـى تحكم كل مايتصـل بالرواية، متجاهلين أننـا بصدد عمل فنى إبداعى، وأننا لسـنا بصدد أحد الكتب البحثية، أو المؤلفات الدراسـية، وأن الأمر أبعد ما يكون عن أن يمس العقيدة، أو يحمل أى عدوان على المقدسات..!!

ولكـن الواقـع أن هذا كان مسـار الأمور لفترة طويلة، ولم تنفـرج الأمور إلا بعد أن ودع «الراوى» حياتنا الدنيا، وصعد إلى بارئه، تاركا أعماله وسائر نتاج قلمه أمانة بين أيدى بنى وطنه وغيرهم من محبىّ الفن، وهواة الأدب، والدارسين فى إخلاص لمختلف صور الإبداع.

* * *

٤ - هل كانت «أولاد حارتنا» سببا فى فوز «نجيب» بجائزة «نوبل»؟

وقد أشاع بعض المغرضين عقب فوز «نجيب محفوظ» فى عام ١٩٨٨م بجائزة «نوبل» أنه إنما منحها لأنه ألف رواية «أولاد حارتنا» – وهى رواية يرى هؤلاء المغرضون أنها تهاجم «الدين»، وتمس «العقيدة» – كما هو دأب الغرب فى إعلاء شأن الخارجين من المسلمين.

وقد ردّد كثيرون هذه الشائعة، وراحوا ينشرونها، ويؤكدون ذلك، بل وادعوا أن هذا ما قالته اللجنة التى منحت «نجيبا» الجائزة..

وسـوف نورد فيما بعد نص تقرير «لجنة نوبل» كاملا بما ينفى صحة هذا الادعاء، لأن جائزة نوبل منحت «لنجيب» على تفوقه فى جملة أعماله الروائية.. وليس من شك فى أن «أولاد حارتنا» كانت من بين الأعمال المتميزة «لنجيب محفوظ».

وقد تناول الأسـتاذ «محمد سلماوى» – الكاتب المعروف – هذا الموضوع، وتحدث عنه حديثـا مطولا فى كتابه: «نجيب محفوظ: المحطـة الأخيرة – ٢٠٠٧م، ص ٥٢، ٥٣» حيث ذكر ما نقله عنه:

سـألنى مذيع إحدى القنـوات الفضائية عن «أولاد حارتنا» وهل كانت سـببا فى فوز «نجيب محفوظ» بجائزة نوبل»...!

- قلت: «من الذى قال ذلك؟»
- قال: «ذلك أمر معروف»
- قلت: «ذلك شـئ مغلوط ولا يصح أن تردده دون معرفة. أولا: جائزة نوبل لا تُعطى

لعمـــل، بل لكاتب.. هناك جوائـــز تعطى لعمل بعينه، مثل جائـــزة (بوكر) البريطانية أو جائزه (بوليتزر) الأمريكية، لكن ليست جائزة نوبل كذلك، ولو أنها تُمنح لعمل بعينه لفاز بها بعض الكُتاب الشباب إذا قدّموا عملا أدبيا جيدا، لكنها لا تعطى إلا للكبار لأنها تعطى للتأثير الذى تركوه على الوجدان الإنســانى على مدى ســنوات، والذى لا يمكن أن يقتصر على رواية واحدة. ثم إن حيثيات منح «محفوظ» جائزة نوبل موجودة ومنشورة، وليس بها ما يقول إنه حصل عليها بسبب رواية واحدة هى «أولاد حارتنا» فقد ذكرت الحيثيات أهم أعمـــال أديبنا الأكبر، فذكرت «أولاد حارتنا»، كما ذكرت «الثلاثية» وغيرهما من روائعه، فلماذا القول إنه لم يحصل على نوبل إلا بسبب «أولاد حارتنا»؟..»

«وقبل أن يجيب المذيع الشاب على سؤالى الاستنكارى، سألته سؤالا آخر: هل تعرف فى أى ســنة نشــرت «أولاد حارتنا»؟ لم يرد قلت: «نشرت سنة ١٩٥٩م، وحصل الأستاذ على نوبل عام ١٩٨٨م أى بعد ثلاثين سنة.

«هل لو كانت نوبل ســتمنح إليه بســبب هذه الرواية كانت ستجئ بعد ثلاثة عقود من الزمان؟!».

وكان فــى هــذا الجواب خير دليل على كــذب هذه المقولة، وابتعادهــا عن الحقيقة، ومخالفتهــا للواقع وقيامها على ادعاءات كاذبة.. وكما أشــرنا فســوف نــورد نص تقرير «لجنة نوبل» فى موضع تال.

ثانيا: عن الراوى:

١ - السمات الشخصية:

• يصفه «رجاء النقاش» فى كتابه «فى حب نجيب محفوظ» بأنه:

رجل متوسط الطول، نحيف جدا، يعانى من مرض السكر، وضعف السمع.. ولكن قلبه ملــىء بنور الحب وذكاء المعرفة وقوة النبوغ.. وهو شــديد التواضع، صاحب نفس قوية لا تعرف الجزع الشديد، ولا تعترف بالأفراح الصاخبة، ولكنها نفس تعرف المواجهة الدافئة القويــة لكل الأفراح والأحــزان. ينظر إلى الأمام، فإذا وجد فى طريقة طوبة انحنى وحملها بيديه وألقى بها فى هدوء إلى جانب الرصيف حتى لا تعوق مســيرته أو مســيرة الآخرين. يحبه الجميع، ولايعرف فى قاموســه كلمة الكره، يلبس ملابس نظيفة، ولكنها غاية فى

البســاطة، ويرفض طيلة حياته أن يقيد نفسه بأى رباط عنق، كان أمامه أن يكون صاحب جــاه ومنصــب ومال، ولكنه آثر على الدوام أن يكون صاحب قلب وقلم، ورضى بأن تكون ثروته هى الســتر، واحتفظ بإبتســامة الرضا على شفتيه ودفء المشــاعر فى قلبه. («رجاء النقاش» – فى حب «نجيب محفوظ» – ط ٢ ص ١٥).

هذا الرجل – بهذه الســمات، هو «نجيب محفوظ»، صاحب هذه الرواية وغيرها من الروايات والقصص – التى صورت الحياة فى مصر أبدع وأعمق تصوير فى مســتوى متصل الرفعة، لم يتدن فى أى مؤلف من مؤلفاته.

٢- مسار حياته:

كان مولد «نجيب محفوظ» فى يوم الإثنين الموافق الحادى عشر من ديسمبر عام ١٩١١م ولد «نجيب محفوظ»، وسمى على اســم الطبيب المشــهور: الدكتور «نجيب محفوظ» الذى تمت ولادة «نجيب محفوظ» المتعثرة على يديه فى بيت قديم يقع فى ميدان بيت القاضى بحىّ الجمالية بالقاهرة بجوار مسجد الحسين، واسم والده: «عبد العزيز أحمد باشا».

ومــن حى الجماليــة أخذ أسماء كثير مــن رواياته: خان الخليلى، زقــاق المدق، بين القصرين، قصر الشــوق، السكرية، وكل هذه الأسماء هى أسماء الحوارى المتلاصقة الطويلة الضيقة الدافئة فى حى الحسين.

ومــن حى الجمالية، أخــذ «نجيب محفوظ» فكرة «الحارة» التــى أصبحت عنده رمزا للمجتمع والعالم أى رمزا للحياة والبشر.

ومــن حى الجمالية أخذ شــخصية «الفتوة» التــى تظهر كثيرا فى أدبــه. والفتوة عند «نجيــب محفوظ» هو رمز للســلطة فى كل وجوهها وتقلباتهــا المختلفة بين العدل والظلم، بين الســماحة وضيق الأفق، بين العنف والاعتدال والشهامة أحيانا وكسر رقاب الناس فى أحيان أخرى.. فعين «نجيب» لا تغفل عن اســتخدام هذه التفاصيل التى أصبحت جزءا لا يتجزأ من أدبه، والتى عرفها وأحبها منذ نشأته الأولى فى حى الحسين. («رجاء النقاش» – المرجع المذكور – ص ١٧، ١٨).

وفى عام ١٩٢٠م انتقلت الأســرة إلى حى العباســية الغربى الذى كانت تقطنه عائلات الطبقة المتوســطة. وكان «لنجيب» أخوان: «محمد» الذى كان ضابطا بالجيش. و«إبراهيم» الذى عنى بتدريس الرياضيات.. وكانت له أخوات أربع تزوجن وتركن منزل الأسرة وكان «نجيب» الأصغر إذ يفصل بينه وبين أصغر الأخوين خمسة عشر عامًا.

قضى «محفوظ» عدة أعوام فى الكتاب ثم التحق سنة ١٩٢٠م بمدرسة خليل أغا ثم مدرسة فؤاد الأول الثانوية.. وبعد حصوله على البكالوريا – القسم الأدبى التحق بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة فيما بعد) واختار قسم الفلسفة دون غيره من الأقسام.. وعقب تخرجه حصل على وظيفة فى إدارة الجامعة دامت أربع سنوات وفى خلال تلك السنوات أنتج رواياته الأولى: عبث الأقدار، رادوبيس، كفاح طيبة. ومن إدارة الجامعة نقله أستاذه «مصطفى عبد الرازق» إلى وزارة الأوقاف «سكرتيرا برلمانيا» حين عين وزيرا للأوقاف.. وعمل «محفوظ» بهذه الوزارة لمدة خمسة عشر عاما تقلد فيها مناصب مختلفة فى الوزارة.. ثم نقل إلى «مصلحة الفنون» مديرا لمكتب رئيسها الأديب «يحيى حقى».. ثم عين مديرا للرقابة على المصنفات الفنية، ثم شغل منصب رئيس صندوق دعم السينما ثم تركه ليعمل مستشارا للوزير إلى أن بلغ سن التقاعد فى عام ١٩٧١م

وظل يواصل الكتابة فى الأهرام – وإصداراته – حتى وفاته بتاريخ ٣٠ أغسطس ٢٠٠٦م.

٣ - أحداث هامة:

• سوف نكتفى بأهم تلك الأحداث:

من أهمها تتلمذ على يد الشيخ «مصطفى عبد الرازق» فى قسم الفلسفة، ثم صداقته للأستاذ: «سلامة موسى» بأفكاره المتقدمة، وتشجيعه له.. فأولهما كان له أثره فى تكوينه الفكرى والخلقى، بل وربما الطبعى.. وثانيهما هو الذى شجعه على الكتابة، ونشر له بعض إنتاجه، وربما كان له أثره فى اتجاهه القصصى..

ومن أهمها حصوله منذ مبتدأ حياته على العديد من الجوائز، ما بين جوائز أهلية وأخرى رسمية. وهى جوائز وإن كانت قيمتها ضئيلة إلا أنها كان لها أثر كبير فى رفع المعنويات والشعور بأن أعماله تلقى القبول والتقدير.. وكان آخرها حصوله على جائزة الدولة التقديرية. ثم حصوله على أعلى وسام فى الدولة على أثر حصوله على جائزة نوبل.

ومنها أيضا تعرفه على من شكلوا فيما بعد «لجنة النشر للجامعيين» فقد كانوا جميعهم من الأدباء الموهوبين الذين ساهموا فى بناء – بل وضع أساس – النهضة الأدبية المعاصرة...

ومنهـا أيضًا لقاؤه مع الأديب الكبير «إبراهيـم عبد القادر المازنى» الذى طلب أن يلقاه بعـد ظهور روايته «زقـاق المدق» فقد أبدى له إعجابه بفنه الروائى، ونصحه بألا يغرق فى الواقعية، بل يخفف منها ويختار..

ومنهـا تعرفـه على شـلة الحرافيش الذيـن كان يصاحبهم ويصحبهم فـى العديد من السـهرات والجلسـات التى لم يكن يدور فيها سـوى أحاديث الفن والأدب والحياة بكل صورها.. بما يفتح العقول، ويوسّع من آفاق الفكر.

ومنها – بل أهمها – حصوله على جائزة نوبل العالمية التى أقرت بلوغه درجة العالمية وفتحت الطريق له – وأمامه – لترجمة العديد من رواياته إلى مختلف لغات العالم.. ولعل الأدق أن نقـول إنها زادت حركة ترجمة مؤلفاته، لأنـه كانت له مؤلفات عديدة مترجمة من قبل.. وإلا فكيف حصل على تلك الجائزة؟ ونذكر أن إعلان حصوله على تلك الجائزة كان بتاريخ ١٣ أكتوبر ١٩٨٨م.

ومن أهم تلك الأحداث تعرض «نجيب محفوظ» لعدوان آثم كان يهدف إلى اغتياله لكن شاءت العناية الإلهية أن يخرج من هذا العدوان بعدد من الجراح، والمتاعب الجسدية دون أن يتحقق الهدف الرئيسى من ذلك العدوان الآثم الذى وقع يوم ١٤ أكتوبر عام ١٩٩٤م.

وتعرض «نجيب محفوظ» لخصومات عديدة، ولكنه كان يلقاها جميعا بسماحته الكبيرة، وانصرافه إلى أعماله وإنتاجه الذى استمر منتظما حتى فترة متقدمة من عمره، بل إنه يمكن القول إنه استمر فى العطاء حتى المرحلة الأخيرة من حياته.

٤- كلمة ختامية عن الراوى:

لم تكن رواية «أولاد حارتنا» هى الوحيدة من بين روايات «نجيب محفوظ» التى قامت علـى الرمز، ففى الكثير من رواياته كان يعمد إلى الرمز، حتى ليحرص نقاده على محاولة فكّ رموز تلك الروايات فمن يكون «سـى السـيد» فى الثلاثيـة، ومن يكون «كمال».. ومن تكون شـخصيات «ميرامار» وكذلك شخصيات «ثرثرة فوق النيل» وهكذا.. فهو يستغرق مع رمـوزه، ويضفـى عليها من مظاهر الحيوية والحياة ما يجعلها شـخصيات معروفة لدينا، ويهمنا فى المقام الأول أن نتعرف إليها وإلى حقيقتها.. فقد أوتى من المقدرة على التصوير، وإبراز الملامح، ما يجعل كل شخصية لها ميزاتها وطباعها وأخلاقياتها وسماتها وتفكيرها حتى لكأننا نعاشر أشخاصا نعرفهم..

كما أوتى من المقدرة على التعمق ليس فقط فى الأشخاص بل فى الأحداث، بما يضفى عليها سمة الواقع، ولكنه ليس الواقع المعتاد، بل الذى يوحى بأفكار، وفلسفات، وأهداف يلمسها كل من يقرأ «نجيب محفوظ» فيحسن قراءته، ويجهد نفسه للوصول إلى مراميه والوقوف على أفكاره..

و«نجيب محفوظ» طرق – فى الواقع – نواح عديدة من نواحى الحياة الواقعية، بما فيها من شئون سياسية، وعلاقات اجتماعية، إنسانية، وتطورات اقتصادية. وأوضاع حياتية حتى ليخيل إلى قارئه أنه قد أحاط بكل النواحى، ولم يترك إحداها إلا تناولها بكتاباته.

و«نجيب» وإن كان واقعيا يخيل إلى قارئه أنه إنما ينقل عن الواقع الملموس، إلا أن الحقيقة – لمن يتأمل كتابات محفوظ – تتكشف عن أن الاختيار سواء للشخصية أو للحدث أو للفكرة، أو لمضمون الرمز، لم يكن بالأمر اليسير، بل كان يمرّ بمراحل عديدة.. تزيد كل مرحلة منها عما سبقها عمقا وعروجا إلى اليمين أواليسار ليحيط بكل ما هو متصل أو مرتبط من قريب أو من بعيد بتلك الفكرة أو بذلك الهدف.

وعندما وقع اختيار لجنة نوبل عليه وترشيحه لجائزتها، فقد وقع على من كان جديرًا بها، حقيقا بنوالها، وجاءت تلك الجائزة تتويجا لإبداعاته، واعترافا بمكانته المتميزة فى عالم الرواية والقصة، والأدب.. ليس بين من يكتبون بالعربية بل وبين سواهم ممكن يكتبون بمختلف لغات العالم.

٥- تقرير لجنة نوبل:

• وقد نشرت الأهرام بتاريخ ١٦ أكتوبر ١٩٨٨م تحت عنوان «وثيقة» ما يأتى:

النص الرسمى الكامل لحيثيات منح الجائزة.

وقد مهدت الجريدة للنشر بما يلى:

«طلب الأهرام من السكرتارية الدائمة للأكاديمية الملكية السويدية موافاته بالنص الرسمى الكامل لحيثيات منح جائزة نوبل فى الأدب لعام ١٩٨٨م للكاتب الكبير «نجيب محفوظ»، وفيما يلى نص الوثيقة».

وفقا لقرار الأكاديمية السويدية هذا العام منحت جائزة نوبل فى الأدب لأول مرة لمصرى هو «نجيب محفوظ» الذى ولد ويعيش فى القاهرة. وهو أيضا أول فائز بجائزة نوبل فى الأدب ولغته الأم هى العربية.

وبالتأريخ «لمحفوظ» نجد أنه يكتب منذ حوالى خمسين عامًا، والآن وهو فى سن السابعة والسبعين مازال يواصل الإنتاج.

وإن الإنجاز العظيم والحاسم «لنجيب محفوظ» يتمثل فى الرواية والقصص القصيرة، وكان إنتاجه يعنى نقطة انطلاق عملاقة للرواية كفن أدبى. ونحو تطوير لغة الأدب فى الدوائر الثقافية للغة العربية. غير أن الذى كان أعظم من ذلك أن أعماله تتحدث إلينا جميعا.

تناولت بواكير رواياته الحقبة الفرعونية لمصر القديمة، بيد أن فيها بالفعل إيحاءات للمجتمع الحديث.

وقد جرت أحداث سلسلة رواياته التى صوَّرت البيئة الشعبية القاهرية فى العصر الحديث، وإلى هذه الروايات تنتمى «زقاق المدق» (١٩٤٧م) حيث يصبح الزقاق مسرحا يجمع حشدا متباينا من الشخوص يشدهم الحديث عن واقعية نفسية. والحقيقة أن «محفوظ» حفر اسمه بالثلاثية الكبرى (٥٦ - ١٩٥٧م) التى تناول فيها أحوال وتقلبات أسرة مصرية منذ نهاية العقد الأول من هذا القرن وحتى منتصف الأربعينيات. وهناك عناصر ذاتية فى هذه الثلاثية. ويرتبط تصوير الأشخاص بوضوح بالظروف الفكرية والاجتماعية والسياسية. ومن خلال مجمل كتابات «محفوظ» فقد أثَّر تأثيرا كبيرا فى أدب بلاده الوطنى.

وموضوع الرواية غير العادية «أولاد حارتنا» (١٩٥٩م) هو البحث الأزلى للإنسان عن القيم الروحية. «فآدم» و«حواء» و«موسى» و«عيسى» و«محمد» وغيرهم من الأنبياء والرسل بالإضافة إلى العالم المحدث يظهرون فى شقق طفيف.

«ثرثرة فوق النيل» (١٩٦٦م) ولم تترجم بعد إلى الإنجليزية هى نموذج لروايات «محفوظ» المؤثرة. فهنا تجرى محاورات ميتافيزيقية على حافة الحقيقة والوهم. وفى الوقت نفسه فإن النص يأخذ شكل تعليق على المناخ الفكرى فى البلاد.

ومحفوظ أيضا كاتب قصة قصيرة ممتاز.

• وقد قال «محفوظ» مؤخرا فى حديث له: «لو حدث أن تخلى عنى الدافع للكتابة فى أى يوم، فإننى أتمنى أن يكون هذا اليوم آخر أيام عمرى».

• وقد نشرت الأهرام إلى جانب هذا النص بيانا بالأعمال المترجمة حتى ذلك التاريخ:

إلى الإنجليزية: زقاق المدق (١٩٤٧م) – بداية ونهاية (١٩٥١م) – أولاد حارتنا (١٩٥٩م) – اللص والكلاب (١٩٦١م) – السمان والخريف (١٩٦٢م) – دنيا الله (١٩٧٣م) – الطريق (١٩٦٤م) – الشحاذ (١٩٦٥م) – ميرامار (١٩٦٧م) – المرايا (١٩٧٢م) – أفراح القبة (١٩٨١م) – حضرة المحترم (١٩٧٥م).

إلى الفرنسية: زقاق المدق (١٩٤٧م) – بين القصرين (١٩٥٦م) – قصر الشوق (١٩٥٧م)

إلى الألمانية: زقاق المدق (١٩٤٧م) – اللص والكلاب (١٩٦١م) – ثرثرة فوق النيل (١٩٦٩م) – أولاد حارتنا (١٩٥٩م).

إلى السويدية: زقاق المدق (١٩٤٧م) – ثرثرة فوق النيل (١٩٦٦م) – بين القصرين (١٩٥٦م).

* * *

٦ - كلمة «نجيب محفوظ» عند تسلم الجائزة:

وإذ كان المفروض أن يسافر «نجيب محفوظ» إلى السويد ليتسلم شخصيا جائزة نوبل من «ملك السويد» ويحضر احتفال العالم بفوزه بتلك الجائزة – إلا إنه لأسباب خاصة اختار الأستاذ «محمد سلماوى» – الكاتب والأديب المعروف – ممثلا شخصيا له فى استلام تلك الجائزة.. غير أن الأديب «محمد سلماوى» – وكما يذكر فى كتابه المشار إليه فيما سلف – ص ٣٢ – أفلح فى إقناع الأديب الكبير بأن تصاحبه كريمتاه: «أم كلثوم وفاطمة» إلى السويد فى هذه الاحتفالات ويذكر قوله: «وبينما ألقيت أنا خطاب أديبنا الأكبر فى الأكاديمية السويدية قامت «أم كلثوم» و«فاطمة» بتسلم الجائزة من يدى الملك».

هذا وقد حدثنى الأستاذ «محمد سلماوى» أن الأستاذ «نجيب محفوظ» كتب كلمته باللغة العربية – وأوكل إلى الأستاذ «محمد سلماوى» مهمة ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية – على أن يلقى هذه الكلمة أولا باللغة العربية – ثم يلقيها ثانيا باللغة الإنجليزية.

وفيما يلى نص كلمة «نجيب محفوظ» التى ألقيت فى حفل تسليم الجائزة:

• نص الكلمة:

فــى البدء أشــكر الأكاديمية الســويدية ولجنة نوبــل التابعة لها علــى التفاتها الكريم لاجتهادى المثابرالطويل وأرجو أن تتقبلوا بســعة صدر حديثى إليكم بلغة غير معروفة لدى الكثيرين منكم، ولكنها هى الفائز الحقيقى بالجائزة، فمن الواجب أن تسـبح أنغامها فى واحتكــم الحضارية لأول مرة. وإنى كبير الأمل ألا تكون المرة الأخيرة، وأن يســعد الأدباء من قومى بالجلوس بكل جدارة بين أدبائكم العالميين الذين نشــروا أريج البهجة والحكمة فى دنيانا المليئة بالشجن.

سادتى:

أخبرنــى مندوب جريــدة أجنبية فى القاهرة بأن لحظة إعــلان اسمى مقرونا بالجائزة ســاد الصمت وتســاءل كثيرون عمَّن أكون – فاسمحوا لى أن أقدم لكم نفســى بالموضوعية التى تتيحها الطبيعة البشرية. أنا ابن حضارتين تزوجتا فى عصر من عصور التاريخ زواجا موفقا: **أولاهما:** عمرها ســبعة آلاف ســنة وهى الحضارة الفرعونية، **وثانيتهما:** عمرها ألف وأربعمائة ســنة وهى الحضارة الإســلامية. ولعلىّ لست فى حاجة إلى تعريف بأى من الحضارتين لأحد منكم، وأنتم من أهل الصفوة والعلم، ولكن لا بأس من التذكير ونحن فى مقام النجوى والتعارف.

وعن الحضــارة الفرعونية: لن أتحدث عن الغزوات وبنــاء الإمبراطوريات فقد أصبح ذلك من المفاخر البالية التى لا ترتاح لذكرها الضمائر الحديثة والحمد لله. ولن أتحدث عن اهتدائها لأول مرة إلى الله ســبحانه وتعالى وكشــفها عن فجر الضمير البشرى. فلذلك مجال طويل فضلا عن أنه لا يوجد بينكم من لم يلمّ بســيرة الملك النبى إخناتون. بل لن أتحدث عن إنجازاتها فى الفن والأدب ومعجزاتها الشــهيرة: الأهرام وأبو الهول والكرنك. فمن لم يســعده الحظ بمشــاهدة تلك الآثار فقد قرأ عنها وتأمّل صورها. دعونى أقدمها – الحضارة الفرعونيــة – بما يشــبه القصة طالمــا أن الظروف الخاصة بى قضت بــأن أكون قصاصا، فتفضلوا بسماع هذه الواقعة التاريخية المسجّلة. تقول أوراق البردى إن أحد الفراعنة قد نما إليه أن علاقة آثمة نشأت بين بعض نساء الحريم وبعض رجال الحاشية. وكان المتوقع أن يجهز على الجميع فلا يشــذ فى تصرفه عن مناخ زمانه. ولكنه دعا إلى حضرته نخبة من

رجـــال القانـــون. وطالبهم بالتحقيق فيما نما إلى علمه، وقـــال لهم إنه يريد الحقيقة ليحكم بالعدل. ذلك السلوك فى رأيى أعظم من بناء إمبراطورية وتشييد الأهرامات وأدل على تفوق الحضـــارة من أى أبهـــة أو ثراء. وقد زالت الإمبراطورية وأمســـت خبرا من أخبار الماضى. وســـوف يتلاشـــى الأهرام ذات يوم ولكن الحقيقة والعدل ســـيبقيان مادام فى البشرية عقل يتطلع أو ضمير ينبض.

وعن الحضارة الإسلامية: فلن أحدثكم عن دعواتها إلى إقامة وحدة بشرية فى رحاب الخالق تنهض على الحرية والمســـاواة والتســـامح، ولا عن عظمة رسولها. فمن مفكريكم من كرَّمه كأعظم رجل فى تاريخ البشـــرية. ولا عن فتوحاتها التى غرست آلاف المآذن الداعية للعبـــادة والتقـــوى والخير على امتداد أرض مترامية ما بين مشـــارف الهند والصين وحدود فرنسا. ولا عن المؤاخاة التى تحققت فى حضنها بين الأديان والعناصر فى تسامح لم تعرفه الإنســـانية من قبل ولا من بعد. ولكنى ســـأقدمها فى موقف درامى – مؤثر – يلخص سمة من أبرز سماتها ففى إحدى معاركها الظافرة مع الدولة البيزنطية ردَّت الأسرى فى مقابل عدد من كتب الفلســـفة والطـــب والرياضة من التراث الإغريقى العتيد. وهى شـــهادة قيمّة للروح الإنسانى فى طموحه إلى العلم والمعرفة. رغم أن الطالب يعتنق دينا سماويا والمطلوب ثمرة حضارة وثنية.

قدر لى يا ســـادة أن أولد فى حضن هاتين الحضارتين. وأن أرضع لبانهما وأتغذى على آدابهما وفنونهما. ثم ارتويت من رحيق ثقافتكم الثرية الفاتنة. ومن وحى ذلك كله بالإضافة إلى شجونى الخاصة – ندَّت عنىَّ كلمات. أسعدها الحظ باستحقاق تقدير أكاديميتكم الموقرة فتوجـــت اجتهادى بجائزة نوبل الكبرى. فالشـــكر أقدمه لها باسمى وباســـم البناة العظام الراحلين من مؤسسى الحضارتين.

ســـادتى:

لعلكم تتســـاءلون: هذا الرجل القادم من العالم الثالث كيف وجد من فراغ البال ما أتاح له أن يكتب القصص..؟

وهو تساؤل فى محلّه.. فأنا قادم من عالم ينوء تحت أثقال الديون حتى ليهدده سدادها بالمجاعة أو ما يقاربها. يهلك منه أقوام فى أسيا من الفيضانات. ويهلك آخرون فى أفريقيا مـــن المجاعة. وهناك فى جنـــوب أفريقيا ملايين المواطنين قضى عليهـــم بالنبذ والحرمان

من أى من حقوق الإنســان فى عصر حقوق الإنســان وكأنهم غير معدودين من البشر. وفى الضفة وغزة أقوام ضائعون رغم أنهم يعيشــون فوق أرضهم وأرض آبائهم وأجدادهم وأجداد أجدادهم. هبُّوا يطالبون بأول مطلب حققه الإنسان البدائى وهو أن يكون لهم موضع مناسب يعترف لهم به. فكان جزاء هبتهم الباسلة النبيلة – رجالا ونساء وشبابا وأطفالا – تكسيرا للعظــام وقتلا بالرصاص وهدما للمنازل وتعذيبا فى الســجون والمعتقلات. ومن حولهم مائة وخمســون مليونا من العرب. يتابعون ما يحدث بغضب وأسى مما يهدد المنطقة بكارثة إن لم تتداركها حكمة الراغبين فى السلام الشامل العادل.

كيــف وجد الرجل القادم من العالم الثالث فراغ البال ليكتب قصصا؟ ولكن من حســن الحظ أن الفن كريم عطوف. وكما أنه يعايش الســعداء فإنه لا يتخلى عن التعســاء. ويهب كل فريق وسيلة مناسبة للتعبير عما يجيش به صدره.

وفى هذه اللحظة الحاسمة من تاريخ الحضارة لا يعقل ولا يقبل أن تتلاشى أنات البشر فى الفراغ. لا شــك أن الإنســانية قد بلغت على الأقل ســن الرشــد. وزماننا يبشر بالوفاق بين العمالقة ويتصدى العقل للقضاء على جميع عوامل الفناء والخراب. وكما ينشط العلماء لتطهير البيئة من التلوث الصناعى فعلى المثقفين أن ينشــطوا لتطهير البشــرية من التلوث الأخلاقــى. فمن حقنا وواجبنا أن نطالب القادة الكبار فى دول الحضارة كما نطالب رجال اقتصادهــا بوثبــة حقيقية تضعهم فى بــؤرة العصر. قديما كان كل قائــد يعمل لخير أمته وحدها معتبرا بقية الأمم خصوصا أو مواقع للاســتغلال. دونما أى اكتراث لقيمة غير قيمة التفوق والمجد الذاتى. وفى سبيل ذلك أهدرت أخلاق ومبادئ وقيم. وبرزت وسائــل غير لائقــة. وأزهقــت أرواح لا تحصى. فكان الكذب والمكر والغدر والقســوة من آيات الفطنة، ودلائــل العظمــة. اليوم يجب أن تتغير الرؤية من جذورها. اليــوم يجب أن تقاس عظمة القائد المتحضر بمقدار شمول نظرته وشــعوره بمســئوليته نحو البشــرية جميعا. وما العالم المتقدم والثالث إلا أســرة واحدة. يتحمل كل إنســان مسئوليته نحوها بنسبة ما حصَّل من علم وحكمة وحضارة. ولعلى لا أتجاوز واجبى إذا قلت لهم باسم العالم الثالث: لا تكونوا متفرجين على مآســينا ولكــن عليكم أن تلعبوا فيها دورا نبيلا يناســب أقداركم. إنكم من موقع تفوقكم مســئولون عن أى انحراف يصيب أى نبات أو حيوان فضلا عن الإنســان فى أى ركن من أركان المعمورة. وقد ضقنا بالكلام وآن أوان العمل. آن الأوان لإلغاء عصر قطّاع

الطرق والمرابين. نحن فى عصر القادة المسئولين عن الكرة الأرضية. أنقذوا المستعبدين فى الجنوب الإفريقى. أنقذوا الجائعين فى إفريقيا. أنقذوا الفلسطينيين من الرصاص والعذاب بل أنقذوا الإسرائيليين من تلويث تراثهم الروحى العظيم. أنقذوا المديونين من قوانين الاقتصاد الجامدة. والفتوا أنظارهم إلى أن مسئوليتهم عن البشر يجب أن تقدم على التزامهم بقواعد علم لعل الزمن قد تجاوزه.

سادتى:

معذرة. أشعر بأنى كدرت شيئا من صفوكم ولكن ماذا تتوقعون من قادم من العالم الثالث. أليس أن كل إناء بما فيه ينضح؟

ثم أين تجد أنات البشر مكانا تتردد فيه إذا لم تجده فى واحتكم الحضارية التى غرسها مؤسسها العظيم لخدمة العلم والأدب والقيم الإنسانية الرفيعة؟ وكما فعل ذات يوم برصد ثروته للخير والعلم طلبا للمغفرة فنحن – أبناء العالم الثالث – نطالب القادرين المتحضرين باحتذاء مثاله واستيعاب سلوكه ورؤيته.

سادتى:

رغم كل ما يجرى حولنا فإننى ملتزم بالتفاؤل حتى النهاية. لا أقول مع الفيلسوف «كانت» إن الخير سينتصر فى العالم الآخر. فإنه يحرز نصرا كل يوم. بل لعل الشر أضعف مما نتصور بكثير. وأمامنا الدليل الذى لا يجحد. فلولا النصر الغالب للخير ما استطاعت شراذم من البشر الهائمة على وجهها عرضة للوحوش والحشرات والكوارث الطبيعية والأوبئة والخوف والأنانية. أقول لولا النصر الغالب للخير ما استطاعت البشرية أن تنمو وتتكاثر وتكون الأمم وتكتشف وتبدع وتخترع وتغزو الفضاء وتعلن حقوق الإنسان: غاية ما فى الأمر أن الشر عربيد ذو صخب ومرتفع الصوت وأن الإنسان يتذكر ما يؤلمه أكثر مما يسره. وقد صدق شاعرنا «أبو العلاء» عندما قال:

إن حزنا ساعة الموت أضعاف سرور ساعة الميلاد

سادتى:

- أكرر الشكر وأسألكم العفو.
- (أعيد نشر النص فى مجلة الثقافة الجديدة – ديسمبر ٢٠١٠م – «نجيب محفوظ» مائة سنة من الإبداع).